

## تجديد ذكرى فضولي البغدادي الهوية والمعتمد واللغات الثلاث\*

تُعَدُّ هذه الدراسةُ في جوهرها دراسةً عبر-ثقافية cross-cultural، فهي تسعى في الواقع إلى تسليط الضوء على مسألة الهوية وفكرة الكتابة والعيش في أكثر من لسان، ممّا قد يؤدي إلى شحذ الفكر بخصوص مفهوم الصلات بين البشر في أصقاع الأرض وتشكيل الهوية. سوف أتناول في بحثي هذا شاعراً عراقياً من العصور الوسطى، عاش في العراق بدايةً من مولده في العام ١٤٩٤ حتى وفاته في العام ١٥٥٦ تقريباً، لكنه كان ينشئ جُلَّ كتاباته وأعظمها بالتركية (التركمانية، الآذرية) مع إسهامات أخرى بالفارسية والعربية.

ليس سهلاً أن تُعدَّ دراسة موجزة عن الشاعر فضولي البغدادي، فحياته غير المستقرة وشاعريته الغزيرة ومؤلفاته المتعددة اللغات في الأدب والدين والتاريخ، فضلاً عن بيئته المتسمة بالاضطهاد والقمع إلى أبعد الحدود، كلّها تخلق أمام هذا المسعى صعوباتٍ لا حصرَ لها. إلا أن للمرء أن يبدأ بأسئلة تتناول جوانبَ مهمةً من حياة فضولي يمكن من خلالها أن نتعرف على مثل هذه الشخصية المتعددة المواهب، ويمكننا البدء بالأسئلة الآتية: ماذا يمثّل فضولي وما مدى فاعلية تعامله مع اللغات والثقافات التي يحياها؟ هل هو شاعر وكاتب عربي لأنه كتب شعراً وألف كتاباً بالعربية؟ أم هو شاعر تركي أو تركماني أو آذري لأنه كتب أعماله بالتركية؟ وماذا نعني باللغة التركية في زمن فضولي، القرن السادس عشر؟ وهل هو شاعر فارسي لأنه كتب قصائد

حسن ناظم\*  
ترجمة حسين ناصر  
جبر\*\*

بالفارسية؟ ثم لماذا كانت الكتابة عن فضولي باللغة العربية محدودة قياساً بما كُتب عنه بالتركية؟ ولماذا لم تُترجم بعدُ إلى العربية بعض أعماله الرئيسة المكتوبة بالتركية والفارسية، مثل «ليلي والمجنون» و«حديقة السعداء». وأخيراً، بما أن فضولي وُلد ومات في العراق، ولم يغادره لأيّ سبب كان<sup>(١)</sup>، هل يمكن أن نعدّه شاعراً وكاتباً ومفكراً عراقياً أكثر مما هو آذري أو تركي أو فارسي؟

يمكن لأدب فضولي البغدادي، وما يتعلق به من ظروف حياته المختلفة، أن تنعش الجدل حول كيفية الاشتغال بالقضايا عبر-ثقافية، يمكن أن تعرّف بوصفها عنصراً حيوياً مهماً في التفاعلات والعلاقات الدولية، إذ إن هذا النقاش المتعدد الاختصاصات المفتوح الآن حول وضع الشاعر فضولي البغدادي ومكانته في خضمّ هذا التعدّد الأدبي والثقافي واللغوي قد يؤدي إلى إذكاء روح الحوار بين المجتمعات، ويعالج تحديات التنوع وحقوق الإنسان بمنهجية أكثر معقولة.

كان العراق، قبل أن يتأسس دولةً حديثة تحت الانتداب البريطاني في العام ١٩٢١، يضمّ المنطقة الممتدة من الموصل إلى البصرة ومن شرق نهر دجلة إلى

غرب نهر الفرات، بحسب ياقوت الحموي (ت ١٢٢٥) في معجم البلدان<sup>(٢)</sup> وفي أضيق تحديدات جغرافية العراق، فإنه يضمّ المنطقة الواقعة في الدلتا الجنوبية

لنهر دجلة والفرات، أي أقاليم البصرة وبغداد، وهنا قضى فضولي حياته بين بغداد وكربلاء والنجف والكوفة والحلة<sup>(٣)</sup>، وعاش في ظلّ ثلاث سلالات حاكمة هي دولة الخروف الأبيض (Ağqoyunlu) والصفويين (١٥٠٨-١٥٣٤)، والأتراك العثمانيين. لا اتفاق بين المؤرخين على مكان ولادة الشاعر محمد بن سليمان فضولي البغدادي، والروايات ترى أنه وُلد في الحلة أو النجف أو ربما في كربلاء في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي (في عام ١٤٩٤ على الأرجح)، ومات في كربلاء عندما أصابها الوباء في سنة ١٥٥٦<sup>(٤)</sup>. وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف تفاصيل حياته الأولى، فقد عاش فضولي ومات في أكثر المدن الشيعية قداسةً في العالم، في النجف وكربلاء، وهاتان المدينتان متجاورتان، عرفتا بضمّهما لضريح الإمام علي بن أبي طالب في النجف وابنه الإمام الحسين في كربلاء، غير أنه عاش أيضاً في بغداد والحلة. وفي هذا الإطار، تبني الباحث التركماني العراقي البارز عطا ترزي باشي فكرةً غريبة يرى فيها أن فضولي وُلد ونشأ في كركوك، ويزعم أن آثار قلعة كركوك لا تزال تضمّ ما يسمى فضولي. ويذكر الدكتور حسين علي محفوظ، أستاذ

الدراسات الشرقية في كلية الآداب، جامعة بغداد، أن فضولي ينحدر من قبيلة بيات التي تنتمي لتحالف أوغوز Oghuz، وهو تحالف قبلي تركماني كان قد استقرّ

تبني الباحث التركماني العراقي البارز عطا ترزي باشي فكرةً غريبة يرى فيها أن فضولي وُلد ونشأ في كركوك، ويزعم أن آثار قلعة كركوك لا تزال تضمّ ما يسمى ببيت فضولي.

في العراق، وتفخر عشيرة قررة ناز، إحدى أقسام قبيلة بيات، وحدها دون أن ينافسها أحد بزعم انتساب الشاعر فضولي إليها.<sup>(٥)</sup>

كتب فضولي شعره بلغات ثلاث هي التركية والفارسية والعربية، وقد أوضح ذلك في مقدمة ديوانه باللغة الفارسية<sup>(٦)</sup>، غير أن قصائده العربية كانت محدودة العدد مقارنة بما كتبه باللغتين الفارسية والتركية. ويظهر الجدول الآتي مبلغ مساهمات فضولي<sup>(٧)</sup> من القصائد وبيان أغراضها في هذه اللغات الثلاث:

	القصائد	الغزل	المعميات	القطعة	الرباعيات
التركية	٤٤	٣٠٥	١٣	٤٤	٨٤
الفارسية	٤٩	٤١٠	٣	٤٦	١٠٦
العربية	١١				

وقد قام عبد اللطيف بندر أوغلو، الشاعر والكاتب التركماني العراقي المعاصر، بدراسة كتاب فضولي "مطلع الاعتقاد في معرفة المبدأ والمعاد" إضافة إلى قصائده العربية الاثنتي عشرة، ونشرها في بغداد في أيلول عام ١٩٩٤ بمناسبة مرور خمسمائة عام على ولادته.<sup>(٨)</sup> كانت القصيدة هي النموذج الشعري الوحيد الذي كتب فيه شعره العربي، في حين توزعت أغراضه في الفارسية والتركية بين نماذج الرباعيات والغزل والمعميات.

تقودنا هذه الحقائق إلى التساؤل عن أمر المعتمد الأدبي literary canon، وكيف أن الأعمال الأدبية تتوزع بين معتمدات أدبية معينة؛ في الواقع يمكننا أن

نتناول موضوع المعتمد الأدبي هذا من جانبين؛ أولهما هو "خيارات الكتب في المؤسسات التعليمية"، أو "قائمة الكتاب المتفق بشأن أهميتهم"<sup>(٩)</sup>، وثانيهما هو "تلك العلاقة بين القارئ والمؤلف بشأن ما يُحتفظ به مما يُكتب".<sup>(١٠)</sup> فيما يتعلق بالمعتمد الأدبي بمفهومه الأول - "خيارات الكتب في المؤسسات التعليمية"، أو "قائمة الكتاب المتفق بشأن أهميتهم" - لم يدخل فضولي ضمن المعتمد الأدبي العربي العراقي. ولم تدخل أعماله أيضاً في المعتمد الأدبي العراقي لو نظرنا إلى المفهوم الثاني للمصطلح؛ أي العلاقة بيننا وبين تلك الروائع الماثلة من بين الأعمال الأدبية المكتوبة الكثيرة.

اقترن مفهوم المعتمد الأدبي بالاحتواء inclusion أو الإقصاء exclusion من حيث الأساس، احتواء رأس المال الثقافي cultural capital أو استبعاده. وقد ورد هذا المصطلح أول مرة على لسان بير بورديو في سياق عمله في علم الاجتماع، مع ذلك فقد استعمله المنظرون في جدل تشكيل مفهوم المعتمد canon من أجل تقديم مشهد نظيري جديد، وفي الوقت الذي يؤكد فيه بورديو أن الطبقة هي السياق الاجتماعي المناسب لتحليل رأس المال الثقافي، يعارض آخرون فكرة خضوع الإقصاء عن المعتمد الأدبي إلى الجنس أو العرق أو الطبقة التي ينتمي إليها المؤلف.<sup>(١١)</sup> ولو أخذنا حالة الشاعر فضولي البغدادي هذه، بوصفه شاعراً عراقياً تركمانياً، نجد

اقترن مفهوم المعتمد الأدبي بالاحتواء inclusion والإقصاء exclusion من حيث الأساس، احتواء رأس المال الثقافي cultural capital أو استبعاده.

ولعلنا لا نبالغ بالقول إنه لو كان فضولي يعيش في العراق أيام الحكم العباسي لكانت جلّ كتاباته باللغة العربية، مثلما فعل ابن الرومي (٢٢١-٢٨٣ للهجرة، ٨٣٦-٨٦٨ للميلاد) الذي ينحدر من أصل رومي، أو بشار بن برد وأبو نواس اللذان كانا فارسيين.

لم تكن الثلاثية اللغوية trilingualism لفضولي (التركية والفارسية والعربية) أمراً مستغرباً آنذاك، بل كان هذا هو الأمر الشائع بين الكتاب الأتراك في تلك الأيام، فقد كانت بيئتهم الثقافية تستمد حياتها من ميراث العربية في العلم والدين ومن الفارسية آدابها<sup>(١٣)</sup>، وكان استعمال فضولي لأيّ من هذه اللغات الثلاث التي كانت متداولة في العراق آنذاك مرتبطاً بالمقام الذي هو

فيه.<sup>(١٣)</sup> إبان حكم الصفويين والعثمانيين للعراق، كانت الثقافة العراقية قد أخذت تضع أسساً جديدة لمعتمديات أدبية canons جديدة لم تدعم الأعمال الأدبية المكتوبة بالعربية فقط، بل تناولت تلك المكتوبة بالفارسية والتركية أيضاً، وكان بعض السلاطين العثمانيين والشاهات الصفويين أنفسهم يكتبون الشعر (بالتركية والفارسية على التوالي) ولديهم برامجهم للارتقاء وتطوير الحياة الأدبية، لذلك كان المعتمد الأدبي يتشكل ويتطور طبقاً لطبيعة الهيمنة السياسية، وهكذا برز في العراق العثماني-الصفوي معتمد أدبي مواز

أنّ التوجهات السياسية الحديثة في العراق منذ العام ١٩٢١ كانت العامل الأساس في تشكيل المعتمد الأدبي في ما يتعلق بالأعمال الأدبية للأقليات مثل الكورد والتركمان، لذلك لم تحظ أعماله، بطبيعة الحال، بما تستحقّه من قدر لاعتبارات لغوية وأيديولوجية. ففي الوقت الذي كان يُنظر فيه إلى فضولي على أنه شاعر تركي بالنسبة لأتراك الإمبراطورية العثمانية وأذربيجان وآسيا الوسطى، لم ينظر إليه في العراق بوصفه شاعراً عراقياً، حيث كان الموقف منه يتسم بالغموض.

ولو نظرنا إلى هذا الموقف الغامض بمقتضى السياق التاريخي للهوية العراقية في تلك السنين التي عاشها فضولي (١٤٩٤-١٥٥٦)، نجد أن العراق لم يكن سوى حلبة للتجاذبات السياسية

والصراعات العسكرية بين الصفويين والعثمانيين.

ينحدر فضولي من قبيلة تركمانية في العراق تدعى بيات، فمن الطبيعي إذن أن تكون اللغة التركية لغته الأم التي كتب بها معظم أعماله الأدبية؛ إضافة لذلك، كان فضولي قد عاش نصف حياته (عاش الشاعر ٦٢ عاماً) تحت السلطة الصفوية (إذ احتل اسماعيل الصفوي بغداد عام ١٥١٨)، والنصف الآخر تحت السيطرة العثمانية (فقد احتل السلطان العثماني سليمان القانوني بغداد عام ١٥٣٤). لم يقتصر تأثير هذا التنافس على الجانب السياسي فقط، وإنما تعدّاه إلى الحياة الأدبية،

**التوجهات السياسية الحديثة في العراق منذ العام ١٩٢١ كانت العامل الأساس في تشكيل المعتمد الأدبي في ما يتعلق بالأعمال الأدبية للأقليات مثل الكورد والتركمان**

وإن لم يكن بالاتساع والذيع نفسه بالنسبة للمعتمد الأدبي العربي، وكُتبت أعمال أدبية كبرى بالفارسية والتركية آنذاك من ضمنها أعمال فضولي البغدادي. من خلال هذا التحول، يمكن أن نوضح تأثيراً ينبثق من هذه الصلة عبر الربط بين الأعمال الأدبية والهيمنة السياسية، فنجد شعبية فضولي وشهرته تتعالى أيام حكم العثمانيين والصفويين، إذ كان وثيق الصلة بالشاه إسماعيل الصفوي ومن ثم بالسلطان سليمان القانوني. أما في العصر الحديث فقد أخذت شهرة فضولي تتزايد بين التركمان العراقيين والآذريين والأترك كذلك، في

حين تضاعف حضوره الأدبي في المعتمد الأدبي العربي.

هنالك، في اعتقادي، ثلاثة أسباب لهذا الانخفاض في شعبية أعمال فضولي الأدبية:

أولاً، إن القراء والجمهور الأدبي العراقي والنقاد، وهم عرب بالأساس،

لم يجدوا من بين أعمال فضولي الأدبية ما يضاهاى بأهميتها أعماله التركية والفارسية، فكتاب "ليلي والمجنون" عمل شعري ضخم كُتب بالتركية، وهو أحد أهم أعماله الأدبية وأشهرها، ولم يُترجم بعدُ إلى العربية للأسف؛

ثانياً، إن الدولة العراقية الحديثة المشكّلة في ظلّ الانتداب البريطاني في العام ١٩٢١، أكّدت المعتمد

الأدبي العربي المرتبط حصراً بالثقافة العربية؛ ثالثاً، لم يقدّم النقاد والمترجمون التركمان في العراق، ممّن يتقنون اللغتين (العربية والتركية)، بترجمة الأعمال الرئيسة لفضولي إلى العربية خصوصاً راعته «ليلي والمجنون» التي، وبالمفارقة، تُرجمت إلى الإنجليزية في العام ١٩٧٠.

كان ذلك محكوماً بتوجّهات الدولة الجديدة نحو تبني نزعات قومية عربية همّشت اللغات والأقليات العرقية الأخرى كالتركمان (التي ينتمي إليها فضولي) والكرد والآشوريين والكلدان. لذلك لم تؤمّن أعمال فضولي ذات القيمة الأدبية

العالية موقعاً رفيعاً له في المعتمد الأدبي العربي العراقي؛ بل الأسوأ من ذلك، كما أسلفنا، أن راعته الأدبية ليلي والمجنون، من بين أعمال مهمّة أخرى، لم تترجم إلى العربية بعدُ، في حين كانت معظم روائع

الأدب العالمي تترجم من لغات عديدة أبرزها الإنجليزية والفرنسية والروسية والإسبانية.

ليس سوى سياسة الإقصاء التي يجب أن تكون سبباً في حرمان العراق من شاعر عظيم كهذا، وإن كان قد كتب أهم أعماله بالتركية، وتمرّ العقود لتصل هذه السياسة أوجها بيد القوميين المتطرفين الذين أخذوا يُظهرون نفورهم واستهجانهم للشعراء من الأصول

لو كان فضولي يعيش في العراق أيام الحكم العباسي لكانت جلّ كتاباته باللغة العربية، مثلما فعل ابن الرومي (٢٢١-٢٨٣ للهجرة، ٨٣٦-٨٦٨ للميلاد) الذي ينحدر من أصل رومي، أو بشار بن برد وأبو نواس اللذان كانا فارسيين.

الفارسية الذين كانوا يشكّلون جزءاً من المعتمد الأدبي العربي العظيم. وعلى هذا، هل ينبغي لنا أن نعيد التفكير بمفهوم المعتمد الأدبي العراقي بمقتضى الوضع الحالي بعد تلك اللحظة التاريخية؛ أي بعد سحق الدكتاتورية في العام ٢٠٠٣؟ بكلمات أخرى، إن الإثنيات العراقية جميعاً عليها الآن أن تساهم في خلق ترتيب جديد للمعتمد الأدبي العراقي تجد فيه جميع الهويات العراقية مكانها.

ومن الأهمية بمكان أن ندرك ما كان من تفاعل في عهد فضولي بين تلك اللغات الثلاث (العربية والفارسية والتركية)، فقد كان للغة العربية بالغ الأثر على الفارسية منذ الوهلة الأولى للوجود العربي الإسلامي في العراق وبلاد فارس. تبنت اللغة الفارسية نطاقاً واسعاً من المفردات والمصطلحات والتعابير العربية، وهذا واضح من خلال الأمثلة المعجمية الوفيرة التي تبين جوانب معينة من هذا التأثير، غير أنه في القرن السادس عشر أخذ الشعر الفارسي يؤثر في الشعر التركي حتى صار مألوفاً أن نجد مفردات ومصطلحات وتعابير فارسية في

إبان حكم الصفويين والعثمانيين للعراق، كانت الثقافة العراقية قد أخذت تضع أسساً جديدة لمعتمدات أدبية canons جديدة لم تدعم الأعمال الأدبية المكتوبة بالعربية فقط، بل تناولت تلك المكتوبة بالفارسية والتركية أيضاً.

الشعر التركي. كان قدر هذه اللغات الثلاث أن يكون لها ذلك التأثير المتبادل بينها نتيجة تواجد مجتمعاتها في المنطقة نفسها، وهذه الحالة الفريدة من التعايش والتأثير المتبادل التي تتمتع بها هذه اللغات الثلاث قد تكون عاملاً مساعداً في إيجاد فهم أفضل لموقف فضولي، في ثباته وتحوّله، لدى التركمان والأذريين والترك والفرس والعرب. يتطلب هذا الوضع المعقد لفضولي، في حقيقة الأمر، مقياساً أو معياراً خاصاً في النظر إليه وتقييمه، ولا شيء يمكن أن يكون معياراً حاسماً أفضل من اللغات التي اختارها ليكتب أعماله الأدبية الرئيسة فيها؛ ومثلما كانت تلك اللغات تسمح بالتغير في ما بينها بشكل أساس، كذلك كان فضولي بالنسبة لجمهوره الذي يشاطره هذه اللغات الثلاث.

هنالك جانب حاسم آخر بالنسبة للباحث الحديث في هذه اللغات الثلاث، ففضولي كان يمثل بالتأكيد مادة بحثية تصل بين المؤلفين وأعمال التأليف في هذه الثقافات المتداخلة الحالية في كل من العراق وأذربيجان وتركيا، وقد أوجد هذا الموضوع المهم، أي أعمال فضولي متعددة اللغات، ميدان بحث يمكن أن يجمع كتاباً ومؤلفين من مصر والعراق وتركيا وإيران وأذربيجان، فيلتقي التركمان من العراق بزملائهم من أذربيجان في باكو في أحد مهرجانات فضولي، ويلتقي باحثون آذريون وأتراك بنظرائهم من العراق في كربلاء عام ١٩٩٤، ومن ثم يلتقون مؤخراً في عام ٢٠٠٩ في مهرجان آخر خاص عنه. تمكن هذا الشاعر، بالمعنى الروحي المرفه للكلمة، من جمع باحثين كثيرين في

في أيام الشاه اسماعيل (١٤٨٧-١٢٤). كان تاريخ الأدب العثماني في العراق، إبان حكم السلطان سليمان القانوني، موضع عناية واهتمام أتاحا لفضولي فرصة الاستمرار بالمساهمة في العهد الجديد للأدب العثماني.<sup>(١٥)</sup> إن شاعراً مثل فضولي يجب أن ينظر إليه، في ضوء ما تقدم، بوصفه معتركا مفاهيمياً لملتقى الثقافات والأمم واللغات التي انتمى إليها وتناولها، غير أن الواقع المعيش للعرب عموماً والعراقيين خاصة، لسوء الحظ، يعارض هذه الرؤية.

عاش فضولي كل حياته في العراق، مع ذلك لا نجد له تمثلاً في أي مكان في العراق، بل نجد له نصباً تذكاريّاً ضخماً في مدينة باكو، عاصمة جمهورية أذربيجان، فهل يشير هذا سؤالاً حول الهوية الشخصية لفضولي، ولعله سؤال يتصل بمفهومنا عن الهوية الوطنية، وهل يمكن لقبر أو تمثال أن يحدّد انتماء شخص ما؟ وما معنى أن يتغافل العراقيون، وأن يوشكوا أن يزيلوا، قبر هذا الشاعر العظيم، بينما يُنحِتُ له نصبٌ ضخم في باكو؛ المدينة التي لم يعرفها على الإطلاق؟ لقد تقدمت تركيا بمقترح إلى حكومة العراق في بواكير سبعينيات القرن

ميدان واحد، فهذا الباحث العراقي حسين علي محفوظ (١٩٢٦-٢٠٠٩) يؤلف كتاباً في العام ١٩٥٩ تحت عنوان «فضولي البغدادي»، ويكتب الباحث المصري حسين مجيب المصري (١٩١٦-٢٠٠٤) كتاباً في العربية بعنوان «حول الأدب الإسلامي: فضولي البغدادي أمير الشعر التركي القديم»، في حين يكتب الآذري حامد أراسلي «فضولي وأعماله»، إضافة إلى آخرين يجدون في أعماله الأدبية إلهاماً كبيراً منهم المؤلف الموسيقي الآذري السوفيتي عزيز عبد الحسين حاجيبوف (١٨٨٥-١٩٤٨) الذي استلهم أوبرا ليلي والمجنون من العمل الشعري لفضولي بالعنوان نفسه، والأوبرا في نصّها وموسيقاها تقدم أوبرا آذرية كلاسيكية تعتمد على قصة حبّ عربية ذاع صيتها في أواسط آسيا أيضاً. وقد كان هناك أداء لهذه الأوبرا في قطر في العام ٢٠٠٩.

من ناحية أخرى، هيمن شعر فضولي على الشعر العثماني بكامله حتى أسماه جب Gibb بالعهد الثاني الذي يمتد من ١٤٥٠ حتى ١٦٠٠، ويطلق عليه أيضاً عصر شعر فضولي<sup>(١٤)</sup>، لذلك عدّه جب شاعراً عثمانياً وتجنّب الخوض في أعماله العربية والفارسية. في واقع الأمر، يمكن تسويق هذا الموقف بالاحتلال العثماني لبغداد أيام السلطان سليمان القانوني (١٤٩٥-١٥٦٦)، الذي يعرفه الأوربيون بالمعظم The Magnificent ويعرفه الأتراك بالقانوني (أو واهب القانون)، فقد جاء الفتح العثماني بعد ستة وعشرين عاماً من احتلال الصفويين لبغداد (٩١٤ / ١٥٠٧-٩٤١ / ١٥٣٤)

في العصر الحديث أخذت شهرة فضولي تتزايد بين التركمان العراقيين والآذريين والأتراك كذلك، في حين تضاعف حضوره الأدبي في المعتمد الأدبي العربي.



يمجد الإمام الحسين ويقدّسه، وأفنى أواخر سني حياته  
موكلاً بمهمة إنارة الضريح.

يبدو أن جميع هذه المسائل يجمعها عامل جوهري  
واحد هو الذي حدا بالمصير الذي آل إليه فضولي وأدبه  
ومكانته، أعني: اللغة التركية الآذرية، إذ إنّ اللغة العربية  
في عهد فضولي (القرن السادس عشر)، بحسب أحد  
الآراء، كانت لغة العلم، في حين كانت الفارسية لغة  
الشعر.<sup>(١٧)</sup> أما بالنسبة لفضولي، فاللغة التركية كانت  
أول وطن له أودع فيه مشاعره وأفكاره حتى تُوج "أميراً  
للشعر التركي القديم ورسول الحب والسلام بين الأمم".<sup>(١٨)</sup>  
وعلى الرغم من إظهاره كما لو لم يكن عراقياً بزعم  
أنه "عاش في منطقة نائية، وهذا أمر ندم عليه"<sup>(١٩)</sup>، كان  
فضولي أفضل مَنْ يمثّل بيئة العراق في ذلك العهد، فهو  
شيعيٌّ وذو اطلاع واسع على اللغتين العربية والفارسية.  
كانت لغته الأم هي التركية (اللهجة التركمانية الآذرية)  
إلا أنّ أول الأعمال الأدبية التي عرفها كانت لأساطين  
الأدب الفارسي، وكان أيضاً واسع الاطلاع على التراث  
الأدبي التركي المتقدم.<sup>(٢٠)</sup> وقد أبان ذلك، في واقع

عاش فضولي كلّ حياته في العراق، مع ذلك  
لا نجد له تمثلاً في أيّ مكان في العراق، بل  
نجد له نُصباً تذكاريّاً ضخماً في مدينة باكو،  
عاصمة جمهورية أذربيجان، فهل يثير هذا  
سؤالاً حول الهوية الشخصية لفضولي، ولعله  
سؤال يتصل بمفهومنا عن الهوية الوطنية؟

هل ينبغي لنا أن نعيد التفكير بمفهوم  
المعتمد الأدبي العراقي بمقتضى الوضع  
الحالي بعد تلك اللحظة التاريخية؛ أي  
بعد سحق الدكتاتورية في العام ٢٠٠٣؟

الماضي من أجل القيام بتجديد ملائم لقبر فضولي، وفي  
مقابل ذلك عرضوا بناء قبر للشاعر العربي الأكبر امرؤ  
القيس، إذ اكتشف الآثاريون موضع قبره أخيراً في ألما  
داغ بالقرب من أنقرة، مع ذلك، كان مصير هذا المقترح  
الإهمال. ومن المهم الإشارة إلى أن بلدية كربلاء نفّذت،  
فيما بعد، مشروع توسيع للشارع الذي يقع فيه قبر فضولي  
مما أدى إلى تهديمه بالكامل. وكان قد شهد ذلك الشاعر  
التركي كمال بيرام، وكتب عنه في كتابه «وادي الرافدين»  
Mesopotamia خلال زيارته للعراق لحضور مهرجان  
المربد الشعري في العام ١٩٧٤. غير أن التبجيل الكبير  
الذي أظهرته وفود أذربيجان 'السوفيتية' لقبر فضولي  
دعت السلطات العراقية إلى تشكيل لجنة لتحديد مكان  
قبر جديد له في مرقد الإمام الحسين. مع ذلك، اختارت  
اللجنة مكاناً آخر للقبر. وقد أكّد هذه الحقيقة المؤرخ  
الآذري غضنفر باشايف في مؤلفه، "ست سنوات على  
ضفاف دجلة والفرات"، وقال إنه في أيلول من العام  
١٩٩٤، في أثناء مهرجان فضولي في المائة الخامسة  
لولادته، جرى بناء قبر جديد للشاعر في غرفة تعود  
لمكتبة المخطوطات في مرقد الإمام الحسين.<sup>(٢١)</sup> وعلى  
أيّ حال، يُعدّ هذا الموقع مناسباً للشاعر الذي طالما كان



كان المرجح في ميل فضولي هذا هو أنه نزوع نحو الهدوء والسلام أكثر منه نفاقاً وتزلفاً، فقد كان يوالي الحاكم المستبد، بل يشايع ذوي النفوذ من الوجهاء، وكان أيضاً يطلب رعاية الحكام.

من الناحية الإثنية، بالتقوى والزهد والتواضع في جوّ ساد فيه التعصّب وعدم التسامح والغلظة. وعلى نحو مماثل، قام كثير ممّن درسوا شعره بتأكيد حالته الروحانية تلك، إذ كانت له حلقات دراسية تنعقد في تكايا كربلاء. عاش فضولي في العراق قبل أن تتشكل الدولة العراقية الحديثة في عام ١٩٢١ بأربعة قرون تقريباً، أي قبل سيادة الدولة القومية؛ وتعني سيادة الدولة القومية، في هذا السياق، سيادة الأقلية العربية السنيّة التي قادت إلى سياسات قسرية ومتفرّدة قُمعت فيها مكوّنات إثنية ودينية منذ العام ١٩٢١ حتى العام ٢٠٠٣، العام الذي وقع فيه للشعب العراقي أهمّ حدث في تاريخه المعاصر، وهو سقوط نظام صدام حسين. هنا لا بد لنا من أن ننظر في شيعة فضولي وأصله التركماني في العراق، مركز الإمبراطورية العباسية حتى سقوط بغداد سنة ١٢٥٨، ومنطقة حكم ونفوذ للصفويين والعثمانيين في عهد فضولي. كان فضولي شاعراً شيعياً؛ لكن، أيّ توجّه شيعيّ كان يتبنّى؟ فهو حتى عندما امتدح سليمان القانوني عندما حالفه الظفر في غزو بغداد وإنهاء الوجود الصفوي، لم ينسَ أن يذكر الإمام علي والإمام

الأمر، في مقدمة ديوانه الفارسي، يقول: "كنتُ أحياناً أنظم في اللغة العربية وقد اجتذبتُ قصائدي جهابذة العرب، وكان ذلك سهلاً لأن لغة البحث العلمي التي لديّ هي العربية. وأحياناً أكتب باللغة التركية، فقصائدي التركية تتماشى مع كفاءتي اللغوية الأم، وهي استجابة لسليقتي، وأحياناً أخرى أنضدّ الجمان باللغة الفارسية".<sup>(٢١)</sup> يمكن للمرء أن يلاحظ الظروف السياسية التي مكّنت اللغة التركية من التفوق على اللغة العربية بوصفها لغة الأدب (الشاه إسماعيل الصفوي كان نفسه شاعراً وترك ديواناً باللغة التركية).<sup>(٢٢)</sup> من ناحية أخرى، يرى تركمان العراق أنّ فضولي هو الدعامة الأولى للشعر التركماني العراقي<sup>(٢٣)</sup>، ومن هنا كانوا هم المفصل الذي لا غنى عنه في ربط فضولي بالعراق، فهو بالنسبة لهم مؤسس الشعر التركماني، في حين يحيل العرب عامة والعراقيون خاصة قصائده العربية إلى ما يسمونه عادةً أدب العصور المظلمة. كان العراق بشكل خاص مركزاً مهماً للأدب التركي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. فعلى سبيل المثال، كان فضل الله الحروفي (المقتول سنة ١٤٠١) مؤسس الحروفية وواحداً من أعظم الكتاب مع تلميذه وخليفته نسيمي البغدادي (المقتول بشكل مروع في ١٤١٨ أو ١٤٣٣).<sup>(٢٤)</sup>

مرة أخرى، يمكننا أن نتأمل السؤال المحوري الذي مرّ سابقاً بشأن فضولي، فيما إذا كان شاعراً عراقياً أم لا، فهو يجسّد بطبيعة الحال التعددية اللغوية والثقافية في العراق؛ ومثلما ذكرنا آنفاً، فإنه وُلد وعاش ومات في العراق. فضلاً عن ذلك، عُرف فضولي، التركماني

### كيف يمكن للمرء أن يسوّغ حقيقة أن العراق الحديث أهمل شاعراً مثل فضولي، في حين مجّده الآذريون؟

الحسين ومأساته في كربلاء؛ غير أن المرء يمكنه أن يستنتج أنّ موقف فضولي في مدحه ذلك، لم يكن يعكس الاتجاه العام للشيعية في العراق في ذلك الوقت، بل يعكس الموقف السنّي تجاه الخلفاء الأربعة بعد النبي، إذ عدّ الإمام علي "آخر الأصحاب الأربعة".<sup>(٢٥)</sup> علاوة على ذلك، كان أدب فضولي المكتوب تحت إشراف السلطة العثمانية يشير إلى موقف شيعيّ معتدل يظهر ميله للتسامح ومطمحه لنيل التشريف. واستناداً إلى وجهة نظره، وبغضّ النظر عن قصده في هذا التحول أو الاعتدال في شيعيته، فإن قصائده يمكن أن تكون مسعىً عبر-ثقافي يتجاهل أيضاً الاختلافات الطائفية وأزمات الجغرافية السياسية في عصره، خصوصاً الصراع العسكري الطائفي بين الصفويين والعثمانيين.

كان المرجّح في ميل فضولي هذا هو أنه نزوع نحو الهدوء والسلام أكثر منه نفاقاً وتزلفاً، فقد كان يوالي الحاكم المستبدّ، بل يشايح ذوي النفوذ من الوجهاء، وكان أيضاً يطلب رعاية الحكّام. كان واضحاً أنه لم يواجه ظلم الحكّام أبداً، ولم يسجن لأسباب سياسية، إنما كان بدلاً من ذلك يتسلّم راتباً من السلطان سليمان القانوني، وعندما قطع الراتب لأسباب بيروقراطية، كتب قصيدته المعروفة رسالة شكوى وتظلم.<sup>(٢٦)</sup>

لنعد الآن لنقطتنا المحورية حول وضع فضولي في

العراق: كيف يمكن للمرء أن يسوّغ حقيقة أن العراق الحديث أهمل شاعراً مثل فضولي، في حين مجّده الآذريون؟ مرة أخرى نقول إنه، على العموم، عاش ومات في العراق. ربما يمكننا أن نناقش أسباباً عدة لهذا الإجحاف أهمّها أنه كتب أعماله الرئيسة باللغة التركية. وعلى الرغم من أن لديه مقداراً لا بأس به من الأعمال الأدبية في الفارسية، فإن أعماله العربية كانت أقل أهمية بالمقارنة، فهي لا تتعدى اثنتي عشرة قصيدة وكتاباً واحداً في علم الكلام عنوانه "مطلع الاعتقاد". غير أن المرء يمكنه مع ذلك أن يخرج بتأويل لمكانته في العراق يتجذر بعمق في موقف الدولة العراقية الحديثة من مفهوم التاريخ والهوية. إن ظهور المملكة العراقية في العام ١٩٢١، في سياق الاحتلال البريطاني، تحت هيمنة السنّة العرب، ومجيء ملك غير عراقي (فيصل الأول ١٨٨٣-١٩٣٣) فرضته الاستراتيجية الاستعمارية البريطانية، لم يمكن المملكة من حلّ القضايا الدقيقة للمكونات الإثنية والدينية والطائفية، أهمّها قضايا الشيعة والكورد؛ ولم تجد السلطة حينذاك، وفيما بعد أيضاً، غير أن تقوم على أساس القسر والإقصاء.

لماذا يتوجّب على الدولة الحديثة بالعراق،  
ذات الأيديولوجية القومية، أن تطالب، أو  
تعيد التفكير في، أو حتى أن تعيد الاعتبار  
لشاعر غير عربي عاش في العراق منذ زمن  
طويل مضى؟

تحظر تداول أعمال حتى الشعراء العراقيين القدامى الذين عاشوا في العهد العباسي؛ لأنهم ينحدرون من أصل فارسي، غير أن هذا يختلف بوضوح عن حالة فضولي، إذ إنَّ هوية العراق في عهد ما قبل الجمهورية كانت هوية متشظية إلى حدٍّ كبير، ولم تُفلح الدولة الحديثة في لَمِّ الشظايا لَمًّا تامًّا.

لابدّ للمعتمد الأدبي العراقي بعد سقوط الديكتاتورية أن يتكيّف بوضوح وينزاح عن طريقة التفكير التقليدية، أي ألا يكون المعتمد عربياً على الدوام. والسياق الاجتماعي والسياسي لهذا التغيّر المطلوب للمعتمد الأدبي في العراق قد يشرع الآن بعد التغيّر الجذري في العام ٢٠٠٣. فالسياسة الأدبية الجديدة تؤثر في القيم العراقية وبضمنها القيم الأدبية وطبيعة تشكيل المعتمد. وأعتقد أن المعتمد الأدبي العراقي سيواجه تحدياً وسيعاد اختباره وتنقيحه، لا من أجل إقصاء المعتمد الأدبي العربي، بل من أجل تضمين مزيد من الأعمال التي لم تدخل هذا المعتمد، لاسيما الأعمال الأدبية المكتوبة بغير اللغة العربية (الأدب الكوردي والتركماني).

الحكومة العراقية في الثمانينيات من القرن الماضي فرضت سياسة إقصاء تحظر تداول أعمال حتى الشعراء العراقيين القدامى الذين عاشوا في العهد العباسي؛ لأنهم ينحدرون من أصل فارسي

تُوجت سياسة الإقصاء هذه بعد بضعة عقود ببرز حزب البعث بأيديولوجيته الشوفينية، وشعارات الأمة العربية الواحدة التي اختزلت إلى أضيق المفاهيم لتنسجم مع بيئة عربية سنيّة، تغصّ النظر عن أيّ مكوّنات إثنية أو دينية أخرى بين أبناء الشعب العراقي: شيعة وكورد وتركمان أو أقليات دينية أخرى. هكذا وبالأخذ بعين الاعتبار هذه الأيديولوجية القومية المتعصّبة، لا يعود من سبب يُوجب على الدولة الحديثة أن تطالب، أو تعيد التفكير في، أو حتى أن تعيد الاعتبار لشاعر غير عربي عاش في العراق منذ زمن طويل مضى؟ لا شيء، في الواقع، يمكن التعويل عليه في ظلّ هذه الأيديولوجية، بل العكس والأسوأ من ذلك أن الحكومة العراقية في الثمانينيات من القرن الماضي فرضت سياسة إقصاء

## الهوامش

\* هذا البحث كُتب أصلاً بالإنجليزية وقيد النشر في إحدى المجلات الأكاديمية.

\*\*حسن ناظم أكاديمي و مترجم، عمل في مجموعة من الجامعات ومراكز البحوث، ويعمل في الإشراف في الكلية الإسلامية للدراسات العليا في المملكة المتحدة المنضوية تحت جامعة مدلسكس، ويدرس مقررًا دراسيًا عن بعد للدراسات العليا منذ العام ٢٠٠٩. نشر ما يقارب ثمانية عشر كتابًا مؤلفًا ومترجمًا وعشرات المقالات والدراسات في مجلات وصحف عربية وأجنبية. من كتبه المؤلفة "الشعرية المفقودة" (٢٠٠٩)، "النص والحياة" (٢٠٠٨)، "أنسنة الشعر" (٢٠٠٦)، "البنى الأسلوبية" (٢٠٠٢)، "مفاهيم الشعرية" (١٩٩٤). ومن ترجماته بالاشتراك مع علي حاكم صالح كتب هانز جورج غادامير "التلمذة الفلسفية" السيرة الذاتية لغادامير، (٢٠١٢)، "الحقيقة والمنهج" (٢٠٠٧)، "طرق هيدغر" (٢٠٠٧)، "بداية الفلسفة" (٢٠٠٢).

\*\*\*حسين ناصر، أكاديمي و مترجم وشاعر، عمل في عدد من الجامعات، وحاليًا يعمل مشرفًا على قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب جامعة الإمام الصادق، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق. من إصداراته مجموعة شعرية بعنوان "مدائن من جمان" (٢٠٠١)، وعدد من الكتب المترجمة إلى الإنجليزية منها "العقلاني في اللامعقول" (٢٠١٠).

١. ينظر: عبد اللطيف بندر أوغلو، مقدمة كتاب فضولي البغدادي، مطلع الاعتقاد والقصائد العربية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٤، ص ٦.

٢. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ج ٤، ص ٩٣-٩٥، ج ٣، ص ٢٧٢-٢٧٥.

3. Demirel, Dr. Hamide. 1991. The Poet Fuḍūlī: His Works, Study of His Turkish, Persian and Arabic Divans. Ministry of Culture, Ankara, p.4.

حميدة ديميرل، الشاعر فضولي: دراسة في دواوينه التركية والفارسية والعربية، أنقرة، وزارة الثقافة، ١٩٩١، ص ٤.

٤. حسين علي محفوظ، فضولي البغدادي، مطبعة البرهان، بغداد، ١٩٥٨، ص ١١-١٢، ومقدمة عبد اللطيف بندر أوغلو،

مصدر سابق، ص ٦.

٥. ينظر: حسين علي محفوظ، فضولي البغدادي، ص ٧، ومقدمة عبد اللطيف بندر أوغلو، مصدر سابق، ص ٧-٨، ومحمد مهدي بيّات، "محاولة للكشف عن أسرة فضولي البغدادي" في مجلة الإخاء، ع ٢٣٥-٢٣٦، نيسان ٢٠٠٩، ص ٩، وعبد العزيز سمين البيّاتي، شاعرية فضولي البغدادي، مطبعة الجمهورية، كركوك، ١٩٧٣، ص ٨، وحميدة ديميرل، ص ١٢.

٦. ينظر: عبد اللطيف بندر أوغلو، مطلع الاعتقاد والقصائد العربية، ص ٦.

٧. حميدة ديميرل، الشاعر فضولي: دراسة في دواوينه التركية والفارسية والعربية، ص ٢٥٢.

٨. ينظر: عبد اللطيف بندر أوغلو، مطلع الاعتقاد والقصائد العربية، ص ١٨.

٩. هارولد بلوم، المعتمد الغربي: الكتب ومدرسة العصور، ١٩٩٤، هاركورت بريس، ص ١٥، ص ٢٠.

Harold Bloom, The Western Canon: The Books and School of the Ages, 1994, Harcourt Brace, p.15 and p.20.

١٠. المصدر نفسه، ص ١٧.

١١. ينظر: جون غيلوري، رأس المال الثقافي: مشكلة تشكيل السجل الأدبي، ١٩٩٣، شيكاغو ولندن، مطبعة جامعة شيكاغو، ص ٨.

See John Guillory, Cultural Capital: The Problem of Literary Canon Formation, 1993, The University of Chicago Press, Chicago and London, p. viii.

١٢. ينظر: صوفي حوري، "حياة فضولي"، في ترجمته لكتاب فضولي ليل والمجنون إلى الإنجليزية، لندن، جورج ألن وأنوين، ١٩٧٠، ص ٢٢.

See Sofi Huri. "The Life of Fuḍūlī" (chap. #1) in Fuḍūlī, 1970. Laylā and Mejnūn. Trans from the Turkish by Sofi Huri, London: George Allen & Unwin, p.22.

١٣. المصدر نفسه، ص ٢٢.

14. Gibb, E. J. W. 1900. An History of Ottoman Poetry. London: Luzac & CO. vol.1, p.5 and p.116.

15. Demirel, Dr. Hamide, p.6.

١٦. نصرت مردان، "فضولي البغدادي أمير الشعر التركاني"، مقال في: موسوعة تركمان العراق، <http://www.alturkmani>.

٢٢. ينظر: صوفي حوري، المصدر السابق، ص ٢٢-٢٣.
٢٣. محمد مهدي بيات، "محاولة للكشف عن أسرة فضولي البغدادي" في مجلة الإخاء، ع ٢٣٥-٢٣٦، نيسان ٢٠٠٩، ص ٨.
٢٤. ينظر: مير بصري، أعلام التركمان والأدب التركي في العراق الحديث، دار الوراق للنشر، لندن، ١٩٩٧، ص ١٧.
25. See: Fuḍūlī, Laylā and Mejnūn, Trans from the Turkish by Sofi Huri, p.16.
٢٦. ينظر: حسين علي محفوظ، فضولي البغدادي، ص ٩.
١٧. ينظر: صوفي حوري، "حياة فضولي"، في ترجمته لكتاب فضولي ليلى والمجنون إلى الإنجليزية، ص ٢٢.
١٨. هذا عنوان مقالة كتبها باللغة التركمانية جلال بلات، وطُبعت في جريدة يورد، عدد ١١٨٢، سنة ١٩٩٤.
١٩. ينظر: صوفي حوري، المصدر السابق، ص ٢٢.
٢٠. ينظر: صوفي حوري، المصدر السابق، ص ٢٢.
٢١. حميدة ديميرل، الشاعر فضولي: دراسة في دواوينه التركمية والفارسية والعربية، ص ٤١.

